



سقوط السهاء

حسن الخلف*

في شتوية شامية، وقبل الخلود إلى النوم، سألت والدي وكنت في السابعة من عمري على ما أظن وأذكر، عما سيحصل إذا سقط الاتحاد السوفياتي واستفردت بنا أميركا. أجابني والدي وقتها بأنه لن يسقط، فكررت عليه والححت، فصفن قليلاً ثم قال لي: سنجوع! حقيقة استغربت جوابه وظل الجواب ليس بذى معنى واضح حتى كبرت ومضت السنون



**ظك الإسلام الوهابي
ممنوعاً في قرغيزستان
طوال الحقبة السوفياتية**

**اختر 58% من الروس
اليوم التخطيط المركزي
كنموذج اقتصادي**



التي لم أكن فيها ملماً بكل تفاصيل المنجزات العظيمة التي قدمها الاتحاد السوفياتي للعالم.

المؤلم في نبوءة والدي هو أن وطننا العراق تحديداً من دون كل بلاد المنطقة هو الذي جاع وأفقر وذبح أهله كنتيجة شبه مباشرة لانهايار الاتحاد السوفياتي حليف العراق المفترض في حينها. ذلك بغض النظر عن محافة صدام حسين وسياساته الكارثية التي جرّتنا والعراق إلى الجحيم...

لم يكن والدي ولا أي من التقدميين العرب وحيداً في تصوراتهم حول الاتحاد السوفياتي، فالشعب السوفياتي نفسه لطالما كان متمسكاً بنظامه. لم تحدث في هذا البلد الكبير أي ثورة لإسقاط نظامه الشيوعي، ولكن كما سبق وشرح مرة الصديق عامر محسن وآخرون، بأن عملية التفكيك التي قادها غورباتشوف، كانت انقلاباً أبيض للنخبة السوفياتية على شعبها والنظام.

صوت السوفيات السابقين

تشير نتائج الاستفتاء الذي أجري يوم 17 آذار 1991 إلى أن ثلاثة أرباع الشعب السوفياتي كانت مع الإبقاء على النظام الاشتراكي قائماً. إلا أن النخبة الغورباتشوفية خانتهم مرة أخرى في ذلك ومضت في تفكيك البلاد بعد تسعة أشهر من تاريخ ذلك الاستفتاء. وبحلول 22 ديسمبر/كانون الأول 1991 كان الاتحاد السوفياتي قد ورثه التاريخ. في تصريح سابق أعلن الرئيس الروسي الحالي فلاديمير بوتين بأن من لم بأسف على موت الاتحاد السوفياتي لا يملك قلباً. لا شك بأن ذلك الأمر يتطلب منا التعمق

فيه لنحاول فهم تفاصيل التاريخ السوفياتي، ولندرك الدافع وراء شدة تمسك أغلب الروس به.

يقترن هنا هذا الحنين لذلك العصر الأحمر لدى الكثير من الروس بتقدير وإجلال عظيم للزعيم السوفياتي جوزيف ستالين. لم يسقط اسم ستالين عن أي من المراكز الخمسة الأولى في نتائج الاستفتاءات التي تقام دورياً في روسيا، والتي تتمحور حول معرفة من هو الرمز الأكثر شعبية في التاريخ الروسي. ذلك على الرغم من كل حملات التشهير والمبالغة والأكاذيب التي أطلقتها الثقافة الليبرالية الجديدة في روسيا كما والبروباغندا الغربية.

ففي أحد هذه الاستفتاءات التي قامت بها إحدى القنوات الروسية عام 2009 حول أعظم شخصيات روسيا التاريخية، وبعد عملية استمرت لثلاثة أشهر شملت قرابة خمسين مليون روسي، تربّع على عرش المرتبة الأولى في المحصلة الأمير النوفوغرادى الكسندر نيفسكي الذي ينتمي للقرن الثالث عشر. الكسندر هذا اكتسب شعبيته من تصديبه الناجح لإحدى الحملات الغربية التي شنّها فرسان النظام الليفوني على روسيا (Gowen: Dec 2013).

فيما ذهب المركز الثاني لبيوتور ستوليبين (Pyotr Stolypin) (1911م) رئيس الوزراء القيصري الذي أشرف على سلسلة من عمليات الإصلاح الزراعي في الفترة التي امتدت بين 1901 و1903 خلال عهد آخر قياصرة آل رومانوف الروس نيقولاى الثاني (1896-1918م). قدّمت هذه الإصلاحات التي عرفت باسمه العون إلى ملايين الفلاحين والأقنان المستعبدين من قبل الأستقراطية القيصرية التي وقفت ضدها بواقع الحال، بعدما ظهرت كاستكمال أولى إصلاحات القيصر الكسندر الثاني الذي منح الحرية للفلاحين الأقنان عام 1861.

ذهب المركز الثالث بشكل صادم للكثيرين في الاستفتاء نفسه لجوزيف ستالين، بفارق ضئيل جداً عن ستوليبين. المثير هنا أن ستالين سبق وحقق المركز الرابع في استفتاء مشابه جرى عام 2004 خلف القيصر بطرس الأكبر (1682-1725م)، فلاديمير لينين (1924م)، والشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين. وفي استكمال لتقدم اسم ستالين في النتيجتين السابقتين، فاز الزعيم السوفياتي بالمركز الأول بنسبة 42%، وعزّزه بمركز أول آخر في استفتاء جرى منذ عدة أشهر متفوقاً على جميع زعماء ومشاهير روسيا بمن فيهم الرئيس الروسي بوتين نفسه، والذي حصل قرابة 38% (Newsweek، 26 June 2017).

من الحالات غربي المصدر. المسألة الثانية كانت العدالة الاجتماعية التي تتمحور حول إنصاف الفلاحين والعمال الذين حاول من فاز أو نجح في إنصافهم بنسب مختلفة. فيما تظهر زاوية أخرى تعبر عن شغف التعبير عن المشاعر الإنسانية بعمق وجمال، دفعت بأدباء وشعراء كتولستوي وبوشكين وليرمنتوف لتحقيق اختراقات في هذه التصنيفات باتجاه المراكز العليا كرموز تاريخية روسية في كثير من الأحيان.

منذ الانطلاقة الفعلية للنموذج الاقتصادي السوفياتي عام 1928 وحتى نهايته الفعلية عام 1989، لم يخفق هذا الاقتصاد في تحقيق النمو والحفاظ على مستواه أو في توفير فرص العمل، إلا باستثناء فترة سنوات الحرب الوطنية العظمى (1941-1945). النمو الاقتصادي السوفياتي كان دائماً أسرع منه في العالم الرأسمالي الذي مر على الأقل بزميتين كبيرتين في العشرينيات والسبعينيات.

التفوق الاقتصادي السوفياتي إن جاز لنا القول حدث بالرغم من سيطرة الغرب على ثلاثة أرباع الكوكب، واستعباده لملايين البشر خدمة له، فضلاً عن نهضة لقارات بأكملها، وفتح آلاف المشاغل باجور منخفضة جداً في العالم الثالث من دون حتى أن يتحمل التكاليف الاجتماعية المتأتبة من هذه العمالة. فضلاً عن تورطه بعشرات الحروب والانقلابات. لا بل كان الثمن المتزامن والمتكرر الذي على سكان المستعمرات دفعه يتمظهر

بملايين الأنفس. ففي مثال واضح خسرت الهند لوحدها أكثر من خمسة ملايين إنسان بسبب المجاعة الفظيعة التي تسببت بها بريطانيا العظمى

نحا العديد من رجال الإعلام والثقافة الغربيين منحى متعالياً في انتقاد نتائج ذلك الاستفتاء مملين على الروس الكيفية التي يجب أن يقرؤوا تاريخهم فيها، ومن يجب أن يجربوا ويكرهوا. فكانت هذا المحاضرات مثيرة للقرق في كثير من الأحيان، مليئة بالعنصرية تجاه الشعب الروسي مغسول الدماغ «الذي يهوى المستبدين والطغاة الأقوياء». في خضم هذه الأحكام يمكننا ملاحظة أن مسالتين أساسيتين كونتا الأرضية التي استند إليها الروس في خياراتهم.

المسألة الأولى كانت بلا شك أمنهم القومي نفسه، فيما يبدو كهوس للروس كالكثير من شعوبنا - ولهم كل الحق - بهذه المسألة التي ترتبط بالحدود والعدوان أو الغزو الخارجي القادم، والذي كان في الغالب الأعم

عام 1900/1899م. ويقدر الباحث الأميركي المعروف مايك ديفز عدد الوفيات ما بين عام 1876 و1902 بما بين 12,2 و29,3 مليون معتمداً على أرقام لانسيت Lancet وغيرها.

لكل ذلك اختار 58% من الروس اليوم وكما ظهر عبر استفتاء آخر، التخطيط والتوزيع المركزي كنموذج اقتصادي، مقابل 28% فقط لنظام السوق الحرة (Gowen: Dec 2013).

وفضل 72% منهم كبح المبادرة الاقتصادية الفردية لصالح الاقتصاد المخطط فيما تشير دراسة أخرى نشرها مركز غالوب Gallup إلى أن قرابة 51% من مواطني 11 جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق يحنون له ويعتقدون أن الحياة كانت أفضل في ظلّه، بما فيهم أوكرانيا (Gowen: Dec 19 report, 2013).

في استفتاء آخر أجري عام 2003 في روسيا حول «ما سيفعل المواطنون الروس إذا استولى الشيوعيون على السلطة». فقال واحد من أربعة من المشاركين أنه سيدعم هذا الخيار، بينما عبر خمس المشاركين (أي 20%) في الاستفتاء عن استعدادهم للتعاون مع السلطة الجديدة، فيما أعلن 27% استعدادهم للقبول بها، من جهة أخرى 16% سيهاجرون إلى الخارج، و فقط 10% سيقاومون. أي أنه بالمحصلة 1 من 4 فقط سيعارضون وصول الشيوعيين للسلطة، فيما سيقبل ويؤيد ويتعاون الثلاثة الباقون (Gowen: Dec 2013).

المسلمون وحكم الملاحدة

في مقابلة مع شابة قرغيزستانية قامت بها صحيفة «الدبلي ميل» اليمينية الشعبية، شرحت كلزات أكماتيماكوف ذات الـ35 ربيعاً لقراء

